

تدمير الأمم بالحروب الدينية والفتن الطائفية

الخليج

18/06/2008_

لا نظن أن هذا الصيف اللاهب سوف ينقضي من دون حدوث توترات دراماتيكية، ليس في سياسات الدول فقط، بل في أسس وجود الدول ذاتها، خصوصاً في منطقة الشرق الأوسط المعبأة بكل عوامل الصراع ويؤثر التوتر، من الصراعات السياسية والعسكرية، إلى التوترات الدينية والصدمات الطائفية.



صلاح الدين حافظ

أماننا لوحة متسعة من هذه الصراعات المتشابكة، إن كانت تشكل حاضر دول المنطقة وأممها، فهي تشكل بالضرورة مستقبلها وترسم خطواته وتحدد معالمه، ونعتقد أنها معالم لمستقبل مختلفة لن تكون أبداً كالماضي ولا كالحاضر.

ولن نبالغ إن قلنا إننا دخلنا بالفعل عصراً جديداً من الصراعات والحروب والصدمات، المبنية على أسس طائفية وخلافات دينية وثقافية وتفاوتات اجتماعية، بعد أن عجزت الحروب والحملات العسكرية والغزوات الاستعمارية عن تحقيق أهدافها في شق ظهور المنطقة العربية حتى النهاية وإخضاعها للغرب بشكل مطلق.

صحيح أن الصدام الديني، خصوصاً بين الإسلام والمسيحية الغربية، قائم منذ قرون، وبلغ شدته خلال الحروب الصليبية، ولكن الصحيح أيضاً أن موجات جديدة من هذا الصدام هبت على فترات وانتعشت خلال عهود الامبراطورية الأوروبية الاستعمارية، وها هي تعود اليوم ربما بصراوة ملحوظة في ظل روح التعصب المتبادل بين بعض المسلمين وبعض المسيحيين في الشرق، كما في الغرب.

ومنذ أن جاء الرئيس الأمريكي الغارب جورج بوش إلى البيت الأبيض، قبل ثماني سنوات إلا بضعة شهور، وهو يصبغ السياسة الأمريكية، وخصوصاً الخارجية بمسحة دينية تبشيرية، إن كانت تدافع بالضرورة عن القيم المسيحية، فهي بالضرورة أيضاً تشير علانية إلى نقائص غيرها، خصوصاً القيم الإسلامية، ولم يكن بوش وحده، ولكنه جاء في مناخ غربي عام وصفه المفكرون المستنثرون بأنه ارتداد عن العلمانية الغربية إلى التدين التقليدي، كما أنه جاء محاطاً بكتائب المحافظين الجدد اليمينيين والمتدينين القادمين في معظمهم من حزام الإنجيل في الولايات الجنوبية لأمريكا.

* * *

على الناحية الأخرى، كانت الأفكار الجهادية والتنظيمات الإسلامية المتشددة تتسع بدعواتها وتحركاتها بحجة الدفاع عن الإسلام في مواجهة الغزو الصليبي اليهودي القادم من الغرب، وهي أفكار انعكست سلباً على مجمل الأوضاع، وصولاً للخروج عن أصول الإسلام، وانتهاء باعتناق العنف والإرهاب في كثير من الأحيان، ما ساعد

على تأجيج فكرة صدام الأديان وصراع الحضارات والثقافات النابعة من الفكر الغربي.

فوق هذه الموجات المتصادمة، مارس بوش وعصابة المحافظين الجدد، المسنودين بقواعد متعصبة ممن يسمون "المسيحية الصهيونية" شديداً الانحياز لـ "إسرائيل" شديداً العداء للعرب والمسلمين، مارس غزواته العسكرية لبناء مجد "إمبراطورية القرن الأمريكي" مستغلاً هجمات سبتمبر/أيلول 2001 الدموية ضد نيويورك وواشنطن، ليغزو أفغانستان في عام 2001 ثم يغزو ويحتل العراق منذ عام 2003 حتى الآن، ومازلنا نذكر كل الشعارات التي كان يغلف بها سياساته وقراراته، وهي شعارات دينية، من نوع حرب الخير ضد الشر، الحرب المقدسة النظيفة، الحرب الصليبية الجديدة، حرب الخلاص.. إلخ.

على أن أخطر ما أفرزته كل هذه السياسات والشعارات، هو اختراع واشنطن لنظرية "الفوضى الخلاقة"، القائمة على نشر الفوضى في الدول العربية والإسلامية، لتدمير كياناتها القائمة والمتهممة بالاستبداد والفساد وتفريع التعصب والإرهاب، ثم بناء دول أخرى جديدة، تقوم على القيم الأمريكية تحديداً.

مارست أمريكا "الفوضى الخلاقة"، وهي المدمرة حقاً، في العراق حتى مزقته، ليس سياسياً وعسكرياً فقط، بل مزقته على أسس عرقية أولاً بين العرب والأكراد، ثم على أسس طائفية بين السنة والشيعة، ثم بين السنة والسنة، والشيعة والشيعة.. وحال العراق اليوم ينطق بهذه المأساة الطائفية القتالية، رغم ادعاءات بوش أنه جلب الديمقراطية والأمن للعراقيين.

عدوى الصدمات الدينية والفتن الطائفية الساخنة تنتقل سريعاً عبر دول المنطقة، ليس فقط بتحريض أمريكي غربي، ولكنها تسبح فوق تراكمات قديمة ومظالم لم تجد لها عدلاً، وتنظيمات متطرفة تضخ أفكاراً متعصبة ضد الآخرين من هذا الدين أو ذلك، وأقرأ بعض الكتب والصحف على الأرصفت، وتابع السموم التي تبتثها بعض الفضائيات الإسلامية والمسيحية، وسمع بعض ما يقال في عدد من المساجد والكنائس، بل وأقرأ بعض مناهجنا التعليمية، لتدرك أن روح التعصب تعصف بنا جميعاً عائمة فوق أسباب داخلية، مدفوعة بأسباب خارجية تمدها بالفكر والمال والتشجيع الذي صار علينا.

ربما يرى البعض أن لبنان بلد الطوائف المتوازنة (18 طائفة)، هو الأكثر عرضة لانفجار الصدام الديني والعنف الطائفي، وهذا صحيح، ولكنني أعتقد أن مصر تحديداً هي الآن الأكثر عرضة لهذا الهجوم الشرس، بل الأكثر استهدافاً لتمزيقها على أسس دينية إسلامية مسيحية، تغذيها كما نكرر عوامل نابعة من داخلنا، وتشجعها وتلهبها حملات من الخارج، معروفة الهدف والوسائل والمصادر.

يجب عدم الاستمرار في حالة التجاهل والتغابي والإنكار، بأن مصر لا تعاني من فتنة طائفية، أو من احتقان بين بعض المسلمين وبعض المسيحيين، ويجب عدم الاستسلام للتفسيرات الأمنية وإجراءاتها وحدها في معالجة مظاهر هذا الصدام، لأن الأمر لو اقتصر على اعتداء على كنيسة أو دير لمرة أو لمرتين لكان العلاج والمواجهة، ولكن حين تقع الصدمات متكررة، وتتبادل الأطراف الاتهامات والاعتداءات والمظاهرات الغاضبة،

وصولاً للاحتجاجات التي تطالب بتدخل بوش وأمريكا لحماية المسيحيين المصريين، فإن الأمر يصبح خطيراً ويعكس مناخاً معبأ بالفرقة والتطرف المتبادل والاستعداد بالنفوس أو بالأجنبي.

للأسف الشديد، لقد بدأ سوس الفتنة الطائفية ينمو ويشتد في مصر منذ بدايات السبعينات، حين وقعت أحداث "الخانكة" عام 1972، ثم امتدت طوال عقدي السبعينات والثمانينات، حتى وصل الإرهاب ذروته في التسعينات، سابحاً فوق أفكار شديد التطرف وتنظيمات إسلامية شديدة التعصب، ليس ضد المسيحيين فقط، بل ضد معظم المسلمين.

ولو كانت الدولة والمجتمع قد عالجا الفتنة الطائفية هذه في بداياتها بالعلاجات السليمة، وليس بالمسكنات الوهمية، لما توسعت وصولاً الى ما نحن فيه اليوم من صدامات متكررة، ولو كانت الدولة طبقت توصيات لجنة تقصي الحقائق التي شكلها البرلمان عام 1972 برئاسة الدكتور جمال العطيفي، لتمكنت من وأد الفتنة وحل الإشكالات ورفع المظالم وكسر شوكة التطرف، الذي أفرز تطرفاً مضاداً.

مصر اليوم، كما قلنا، الأكثر عرضة للتمزيق الطائفي والصراع الديني، بعد أن قويت أسلحة المتشددين والمتطرفين على الجانبين، وهي الأكثر استهدافاً لمشاريع قديمة تتجدد لتقسيمها في إطار نظرية "الفوضى الخلاقة"، أي المدمرة، بين دولة إسلامية وأخرى مسيحية، ودولة نوبية في الجنوب وأخرى في سيناء تكون منطقة عازلة بينها وبين "إسرائيل" المحمية الأمريكية، والنموذج الأوضح للدولة الدينية في عصور الدول الحديثة.. والديمقراطية.

المصريون جميعاً مطالبون اليوم بإعادة الحساب وتصحيح الاتجاه الخاطئ الذي يسيرون فيه، لكي ينجذوا وطنهم الذي عاش موحداً آلاف السنين، من فتنة الصراع الديني والعنف الطائفي.. بل لينقذوه من فتنة التمزيق والتقسيم، وهي فتنة تصر أن تلفحنا بلهيبها في الصيف الساخن، وإلا أين ذهبت قيم التسامح والتعايش، والمواطنة والمساواة، ودولة القانون وحقوق الإنسان والوحدة الوطنية والدولة المدنية الحديثة؟